## سورة الأعراف

**١ـ هذا هو الاسم الذي عرفت به هذه السورة، من عهد النبي ﷺ.**

أخرج النسائي، من حديث أبي مليكة، عن عروة بن زيد بن ثابت: أنه قال لمروان بن الحكم: ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار السور وقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطول الطوليين.

قال مروان قلت: يا أبا عبد الله ما أطول الطوليين، قال: الأعراف. ٨ـ٢/٥

**٢ـ ووجه تسميتها أنها ذكر فيها لفظ الأعراف** بقوله ـتعالىـ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ الآية.

ولم يذكر في غيرها من سور القرآن، ولأنها ذكر فيها شأن أهل الأعراف في الآخرة، ولم يذكر في غيرها من السور بهذا اللفظ، ولكنه ذكر بلفظ ﴿سُورٍ﴾ في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ في سورة الحديد. ٨ـ٢/٥

**٣ـ وربما تدعى بأسماء الحروف المقطعة التي في أولها وهي:** «ألف ـ لام ـ ميم ـ صاد».

أخرج النسائي من حديث أبي الأسود، عن عروة، عن زيد بن ثابت: أنه قال لمروان: لقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بأطول الطوليين: «ألف، لام، ميم، صاد».

وهو يجيء على القول بأن الحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور هي أسماء

للسور الواقعة فيها، وهو ضعيف، فلا يكون ﴿المص﴾ اسماً للسورة، وإطلاقه عليها إنما هو على تقدير التعريف بالإضافة إلى السورة ذات ألمص. ٨ـ٢/٥ـ٦

٤ـ **وذكر الفيروز بادي في كتاب بصائر ذوي التمييز أن هذه السورة تسمى سورة الميقات**؛ لاشتمالها على ذكر ميقات موسى في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ **وأنها تسمى سورة الميثاق**؛ لاشتمالها على حديث الميثاق في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ .٨ـ٢/٦

٥ـ **وهي مكية بلا خلاف**، ثم قيل: جميعها مكي. ٨ـ٢/٦

٦ـ **وهي من السبع الطوال** التي جعلت في أول القرآن لطولها وهي سُوَرُ: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وبراءة.

وقدم المدني منها وهي سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة؛ ثم ذكر المكي وهو: الأنعام، والأعراف على ترتيب المصحف العثماني؛ اعتباراً بأن سورة الأنعام أنزلت بمكة بعد سورة الأعراف؛ فهي أقرب إلى المدني من السور الطوال. ٨ـ٢/٧

٧ـ **أغراضها:** افتتحت هذه السورةُ بالتنويهِ بالقرآن، والوعدِ بتيسيره على النبي ﷺ لِيُبَلِّغَهُ، وكان افتتاحها كلاماً جامعاً وهو مناسب لما اشتملت عليه السورة من المقاصد؛ فهو افتتاح وارد على أحسن وجوه البيان، وأكملها شأنَ سورِ القرآن.

وتدورُ مقاصدُ هذه السورةِ على محورِ مقاصدَ منها: النهيُ عن اتخاذ الشركاء من دون الله، وإنذارُ المشركين عن سوء عاقبة الشرك في الدنيا والآخرة، ووصفُ ما حلَّ بالمشركين والذين كذبوا الرسل: من سوء العذاب في الدنيا، وما سيحل

بهم في الآخرة، وتذكيرُ الناس بنعمة خلق الأرض، وتمكينِ النوع الإنساني من خيرات الأرض، وبنعمةِ الله على هذا النوع بخلق أصله وتفضيله.

وما نشأ من عداوة جنس الشيطان لنوع الإنسان.

وتحذيرُ الناسِ من التلبس ببقايا مكر الشيطان من تسويله إياهم حرمانَ أنفسِهم الطيباتِ، ومن الوقوع فيما يَزُجُّ بهم في العذاب في الآخرة.

ووصفُ أهوالِ يومِ الجزاءِ للمجرمين، وكراماتِه للمتقين.

والتذكيرُ بالبعث، وتقريبُ دليله.

والنهيُ عن الفساد في الأرض التي أصلحها الله لفائدةِ الإنسان.

والتذكيرُ ببديع ما أوجده الله لإصلاحها وإحيائها.

والتذكيرُ بما أودع اللهُ في فطرةِ الإنسان من وقت تكوين أصله أن يقبلوا دعوةَ رسلِ الله إلى التقوى والإصلاح.

وأفاضَ في أحوال الرسل مع أقوامهم المشركين، وما لاقوه من عنادهم وأذاهم، وأنذر بعدم الاغترار بإمهالِ اللهِ الناسَ قبل أن ينزل بهم العذاب، وإعذاراً لهم أن يُقْلعوا عن كفرهم وعنادهم؛ فإن العذاب يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال.

وأطال القولَ في قصة موسى -عليه السلام- مع فرعون وفي تصرفات بني إسرائيل مع موسى -عليه السلام-.

وتخلَّلَ قِصتَه بشارةُ اللهِ ببعثة محمد ﷺ وصفةُ أمته، وفضلُ دينه.

ثم تَخَلَّصَ إلى موعظة المشركين كيف بدَّلوا الحنيفية، وتقلَّدوا الشرك، وضربَ لهم مثلاً بمن آتاه الله الآيات، فوسوس له الشيطان؛ فانسلخ عن الهدى.

ووصفُ حالِ أهلِ الضلالة، ووصفُ تكذيبهم بما جاء به الرسول، ووصفُ آلهتهم بما ينافي الإلهية، وأن لله الصفاتِ الحسنى صفاتِ الكمال.

ثم أمر الله رسوله -عليه الصلاة والسلام- والمسلمين بسعة الصدر، والمداومة على الدعوة، وحذرهم من مداخل الشيطان بمراقبة الله بذكره سراً وجهراً، والإقبال على عبادته. ٨-٢/٧-٩

٨- ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ عطف على جملة: ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

فهذا تذكير لهم بأن الله هو ولي الخلق؛ لأنه خالقهم على وجه الأرض، وخالق ما بِهِ عَيْشُهم الذي به بقاءُ وجودِهم إلى أجل معلوم، وتوبيخٌ على قلة شكرها، كما دل عليه تذييل الجملة بقوله: ﴿ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ **فإن النفوس التي لا يزجرها التهديد قد تنفعها الذكريات الصالحة،** وقد قال أحد الخوارج وطُلِبَ منه أن يخرج إلى قتال الحجاج بن يوسف وكان قد أسدى إليه نعماً.

**أأقاتل الحجاج عن سلطانه بيدٍ تُقِرُّ بأنها مولاته**

٨-٢/٣٣

٩- وقوله: ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ أشد في التحذير من أن ينهى عن الأكل منها؛ لأن النهي عن قربانها سدٌّ لذريعة الأكل منها، وقد تقدم نظيره في سورة البقرة.

**والنهي عن قربان شجرة خاصة** من شجر الجنة يُحْتَملُ أن يكون نهي ابتلاء، جعل الله شجرة مستثناة من شجر الجنة من الإذن بالأكل منها؛ تهيئةً للتكليف

بمقاومة الشهوة؛ لامتثال النهي.

فلذلك جعل النهي عن تناولها محفوفةً بالأشجار المأذون فيها؛ ليلتفت إليها ذِهْنَهما بتركها، وهذا هو الظاهر؛ ليتكون مختلفُ القوى العقلية في عقل النوع بتأسيسها في أصل النوع؛ فتنتقل بعده إلى نسله.

وذلك من اللطف الإلهي في تكوين النوع، ومن مظاهر حقيقة الربوبية والمربوبية؛ حتى تحصل جميع القوى بالتدريج؛ فلا يشق وضعها دفعة على قابلية العقل.

وقد دلت الآياتُ على أن آدمَ لما ظهر منه خاطرُ المخالفةِ أَكَلَ من الشجرة المنهيِّ عنها، فأعقبه الأكل حدوث خاطر الشعور بما فيه من نقائصَ أدركها بالفطرة، فمعناه أنه زالت منه البساطة والسذاجة.

ويحتمل أن يكون ذلك لخصوصية في طبع تلك الشجرة أن تثير في النفس علم الخير والشر كما جاء في التوراة أن الله نهاه عن أكل شجرة معرفة الخير والشر.

وهذا -عندي- بعيد، وإنما حكى الله لنا هيئة تطور العقل البشري في خِلْقَةِ أصل النوع البشري نظيرَ صُنْعِهِ في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. ٨-٢/٥٤-٥٥

١٠- فقوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ لا يدل على أكثر من حصول ظهور السوآت عند ذوق الشجرة، أي أن الله جعل الأمرين مقترنين في الوقت، ولكن هذا التقارن هو لكون الأمرين مُسَبَّبين عن سبب واحد، وهو خاطر السوء الذي نفثه الشيطان فيهما؛ فَسَبَّبَ الإقدامَ على المخالفة للتعاليم الصالحة، والشعور بالنقيصة؛ فقد كان آدم وزوجه في طور سذاجة

العلم، وسلامة الفطرة شبيهين بالملائكة لا يقدمان على مفسدة ولا مضرة، ولا يعرضان عن نصح ناصح علما صِدْقَه إلى خبرِ مُخْبِرٍ يَشُكَّان في صدقه، ويتوقعان غرورَه، ولا يشعران بالسوء في الأفعال، ولا في ذرائعها ومقارناتها؛ لأن الله خلقهما في عالم ملكي، ثم تطورت عقليتهما إلى طور التصرف في تغيير الوجدان، فَتَكَوَّن فيهما فعلُ ما نهيا عنه، ونشأ من ذلك التطورِ الشعورُ بالسوءِ للغير، وبالسوءِ للنفس، والشعورِ بالأشياء التي تؤدي إلى السوءِ، وتُقَارِنُ السوءَ وتلازمه. ٨ـ٢/٦٢ـ٦٣

١١ـ **فالطفل في أول عمره يكون بريئاً من خواطر السوء؛** فلا يستاء من تلقاء نفسه إلا إذا لحق به مؤلم خارجي، ثم إذا ترعرع أخذت خواطر السوء تنتابه في باطن نفسه، فيفرضها، ويولدها، وينفعل بها، أو يفعل بما تشيرُ بِهِ عليه. ٨ـ٢/٦٣ـ٦٤

١٢ـ **وإذ قد كانت نفوس الشياطين داعية إلى الشر بالجِبِلَّة تعيَّن أن عقل الإنسان منصرفٌ بِجِبِلَّته إلى الخير،** ولكنه معرضٌ لوسوسة الشياطين؛ فيقع في شذوذ عن أصل فطرته، وفي هذا ما يكون مفتاحاً لمعنى كون الناس يولدون على الفطرة، وكون الإسلام دين الفطرة، وكون الأصل في الناس الخير.

أما كون الأصل في الناس العدالة أو الجرح فذلك منظور فيه إلى خشية الوقوع في الشذوذ من حيث لا يدري الحاكم ولا الراوي؛ لأن أحوال الوقوع في ذلك الشذوذ مبهمةٌ؛ فوجب التبصر في جميع الأحوال. ٨ـ٢/٦٨

١٣ـ **فقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾** : نقض لدعواهم أن الله أمرهم

بها أي بتلك الفواحش، وهو ردٌّ عليهم، وتعليمٌ لهم، وإفاقةٌ لهم من غرورهم؛ لأن الله متصف بالكمال، فلا يأمر بما هو نقص لم يَرْضَهُ العقلاءُ وأنكروه؛ فكونُ الفعلِ فاحشةً كافٍ في الدلالة على أن الله لا يأمر به؛ لأن الله له الكمال الأعلى، وما كان اعتذارهم بأن الله أمر بذلك إلا عن جهل؛ ولذلك وبخهم الله بالاستفهام التوبيخي بقوله: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾.

أي ما لا تعلمون أن الله أمر به؛ فحذف المفعول لدلالة ما تقدم عليه؛ لأنهم لم يعلموا أن الله أمرهم بذلك؛ إذ لا مستند لهم فيه، وإنما قالوه عن مجرد التوهم، ولأنهم لم يعلموا أن الله لا يليق بجلاله وكماله أن يأمر بمثل تلك الرذائل. ٨ـ٢/٨٤ـ٨٥

١٤ـ **وبهذا الرد تمحض عملهم تلك الفواحشَ** للضلال والغرور، واتباع وحي الشياطين إلى أوليائهم أئمة الكفر، وقادة الشرك مثل عمرو بن لحي الذي وضع عبادة الأصنام، ومثل أبي كبشة الذي سن عبادة الشِّعرى من الكواكب، ومثل ظالم بن أسعد الذي وضع عبادة العُزَّى، ومثل القَلَمّس الذي سن النسيء، إلى ما اتصل بذلك من موضوعات سدنة الأصنام، وبيوت الشرك. ٨ـ٢/٨٥

١٥ـ **وإقامة الوجوه تمثيل لكمال الإقبال على عبادة الله ـتعالىـ** في مواضع عبادته ـ بحال المتهيئ لمشاهدة أمرٍ مُهِمٍّ حين يوجِّه وجْهَهُ إلى صوبه، لا يلتفت يمنة ولا يسرة؛ فذلك التوجه المحض يطلق عليه إقامة؛ لأنه جعل الوجه قائماً، أي غير متغاضٍ ولا متوانٍ في التوجه، وهو في إطلاق القيام على القوة في الفعل كما يقال: قامت السوق، وقامت الصلاة، وقد تقدم في أول سورة البقرة عند قوله: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاة ﴾ ومنه قوله ـتعالىـ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾.

فالمعنى أن الله أمر بإقامة الوجوه عند المساجد؛ لأن ذلك هو تعظيم المعبود، ومكان العبادة.

ولم يأمر بتعظيمه ولا تعظيم مساجده بما سِوَى ذلك مثل التعري.

وإشراكُ الله بغيره في العبادة منافٍ لها -أيضاً- وهذا كما ورد في الحديث: «**المصلي يناجي ربه؛ فلا يبصقن قبل وجهه**».

فالنهي عن التعري مقصود هنا؛ لشمول اللفظ إياه، ولدلالة السياق عليه بتكرير الامتنان والأمر باللباس ابتداءً من قوله: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ إلى هنا. ٨-٢/٨٧-٨٨

١٦- **فالمقصد من قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾**: إبطال ما زعمه المشركون من لزوم التعري في الحج في أحوال خاصة، وعند مساجد معينة؛ فقد أخرج مسلم عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُرْيانةٌ وتقول من يعيرني تطوافاً تجعله على فرجها وتقول:

**اليوم يبدو بعضُه أو كُلُّه وما بدا منه فلا أحلُّه**

وأخرج مسلم عن عروة بن الزبير، قال: «كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحُمْس، والحمسُ قريش وما ولدت، فكان غيرهم يطوفون عراة إلا أن يعطيهم الحمس ثياباً، فيُعْطِي الرجالُ الرجالَ، والنساءُ النساءَ».

وعنه: «أنهم كانوا إذا وصلوا إلى منى طرحوا ثيابهم، وأتوا المسجد عراة».

وروي أن الحمس كانوا يقولون: نحن أهل الحرم؛ فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا.

فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوباً، ولا يجد ما يستأجر به -

كان بين أحد أمرين إما أن يطوف بالبيت عرياناً، وإما أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه؛ فلم يمسه أحد وكان ذلك الثوب يسمى: اللقى بفتح اللام قال شاعرهم:

**كفى حزناً كرِّي عليه كأنه لَقَىً بين أيدي الطائفين حرامُ**

وفي الكشاف، عن طاووس: كان أحدهم يطوف عُرْياناً، ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضُرِبَ، وانْتُزِعَتْ منه؛ لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها.

وقد أبطله النبي ﷺ إذ أمر أبا بكر ﷺ عام حجته سنة تسع أن ينادي في الموسم: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ٨ـ٢/٩٢ـ٩٣

١٧ـ **والإسراف**: تقدم عند قوله ـتعالى ـ: ﴿وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً﴾ في سورة النساء، وهو تجاوز الحد المتعارف في الشيء أي: ولا تسرفوا في الأكل بكثرة أكل اللحوم والدسم؛ لأن ذلك يعود بأضرار على البدن، وتنشأ منه أمراض معضلة.

وقد قيل: إن هذه الآية جمعت أصول حفظ الصحة من جانب الغذاء؛ فالنهي عن السرف نهي إرشاد لا نهي تحريم بقرينة الإباحة اللاحقة في قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ﴾.

ولأن مقدار الإسراف لا ينضبط؛ فلا يتعلق به التكليف، ولكن يُوكَلُ إلى تدبير الناس مصالِحَهُم، وهذا راجع إلى معنى القسط الواقع في قوله سابقاً: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ فإن ترك السرف من معنى العدل. ٨ـ٢/٩٥

١٨ـ **وقد اشتهر عند العرب نسبة العقول الراجحة إلى عاد،** ونسبة كمال قوى

الأجسام إليهم قال النابغة:

أحـلامُ عـادٍ وأجـسامٌ مطهـرةٌ ... مـن المَعَقّـةِ والآفـات والإثـم

وقال ودّاك بن ثميل المازني في الحماسة:

وأحـلامُ عـادٍ لا يخـاف جليـسهم ... ولـو نطـق العُـوّارَ غَـرْبُ لـسانِ

وقال قيس بن عبادة:

وأن لا يقولـوا غـاب قـيسٌ وهـذه ... سـراويل عـادي نَمَتـهُ ثمـود

٨ـ٢/٦٠٢

١٩ـ **والقوم الذين أرسل إليهم لوط ـعليه السلام ـ هم أهل قرية سدوم، وعمورة من أرض كنعان**، وربما أطلق اسم سدوم وعمورة على سكانهما.

وهم أسلاف الفينيقيين وكانتا على شاطئ السديم، وهو بحر الملح، كما جاء في التوراة[1] وهو البحر الميت المدعو بحيرة لوط بقرب أرشليم.

وكانت قرب سدوم ومن معهم أحدثوا فاحشة استمتاع الرجال بالرجال، فأمر الله لوطاً ـعليه السلام ـ لما نزل بقريتهم سدوم في رحلته مع عمه إبراهيم عليه السلام أن ينهاهم، ويغلظ عليهم.

فالاستفهام في ﴿ أَتَأْتُونَ ﴾ إنكاري توبيخي، والإتيان المستفهم عنه مجاز في التلبس والعمل، أي أتعملون الفاحشة، وكني بالإتيان على العمل المخصوص وهي كناية مشهورة.

**والفاحشة**: الفعل الدنيء الذميم، وقد تقدم الكلام عليها عند تفسير قوله

---

١ـ الإصحاح ١٤ من سفر التكوين.

-تعالى-: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ : والمراد هنا فاحشة معروفة؛ فالتعريف للعهد.

وجملة: ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ مستأنفةٌ استئنافاً ابتدائياً؛ فإنه بعد أن أنكر عليهم إتيان الفاحشة، وعبر عنها بالفاحشة، وبّخهم بأنهم أحدثوها، ولم تكن معروفة في البشر؛ فقد سنوا سنةً سيئة للفاحشين في ذلك. ٨-٢/٢٣٠

٢٠- **وقوله: ﴿ مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴾ زيادة في التفظيع**، وقطع للعذر في فعل هذه الفاحشة، وليس قيداً للإنكار؛ فليس إتيان الرجال مع إتيان النساء بأقل من الآخر فظاعة، ولكن المراد أن إتيان الرجال كله واقع في حالة من حقها إتيان النساء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾. ٨-٢/٢٣١

٢١- **ووصفهم بالإسراف بطريق الجملة الاسمية الدالة على الثبات**، أي أنتم قوم تَمَكَّن منهم الإسراف في الشهوات، فلذلك اشتهوا شهوةً غريبةً لما سئموا الشهوات المعتادة.

وهذه شِنْشَنَةُ الاسترسالِ في الشهوات حتى يصبح المرء لا يَشْفي شَهْوَتَهُ شيءٌ.

ونحوُه قوله عنهم في آية أخرى: ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾. ٨-٢/٢٣٢

٢٢- ووجه تسمية هذا الفعل الشنيع فاحشةً وإسرافاً أنه يشتمل على مفاسد كثيرة: منها استعمال الشهوة الحيوانية المغروزة في غير ما غرزت عليه؛ لأن الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية، لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل، حتى يكون الداعي إليه قَهْرِيٌّ يَنساق إليه الإنسانُ بطبعه؛ فقضاءُ تلك الشهوة في غير الغرض الذي

وضعها الله لأجله اعتداءً على الفطرة وعلى النوع، ولأنه يغير خصوصية الرُّجلَةِ بالنسبة إلى المفعول به؛ إذ يصير في غير المنزلة التي وضعه الله فيها بخلقته، ولأن فيه امتهاناً محضاً للمفعول به؛ إذ يُجْعَلُ آلة لقضاء شهوة غيره على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة من قضاء الشهوتين معاً، ولأنه مُفْضٍ إلى قطع النسل أو تقليله، ولأن ذلك الفعل يجلب أضراراً للفاعل والمفعول بسبب استعمال محلين في غير ما خلقا له. ٨ـ٢/٢٣٢

٢٣ـ **والتطهر تكلف الطهارة،** وحقيقتها النظافة، وتطلق الطهارة ـمجازاًـ على تزكية النفس والحذر من الرذائل، وهي المراد هنا، وتلك صفة كمال، لكن القوم لما تمردوا على الفسوق كانوا يعدون الكمال منافراً لطباعهم؛ فلا يطيقون معاشرة أهل الكمال، ويذمون ما لهم من الكمالات؛ فيسمونها ثِقْلاً، ولذا وصفوا تنزه لوط ـ عليه السلام ـ وآله تطهراً، بصيغة التكلف والتصنع، ويجوز أن يكون حكاية لما في كلامهم من التهكم بلوط ـ عليه السلام ـ وآله، وهذا من قلب الحقائق لأجل مشايعة العوائد الذميمة.

وأهل المجون والانخلاع، يسمون المتعفف عن سيرتهم بالتائب أو نحو ذلك، فقولهم ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ قصدوا به ذمهم.

وهم قد علموا هذا التطهر من خلق لوط ـعليه السلامـ وأهله لأنهم عاشروهم، ورأوا سيرتهم، ولذلك جيء بالخبر جملة فِعلّية مُضَارَعيَّه؛ لدلالتها على أن التطهر متكرر منهم، ومتجدد، وذلك أدعى لمنافرتهم طباعهم، والغضب عليهم، وتجهم إنكار لوط ـ عليه السلام ـ عليهم. ٨ـ٢/٢٣٥ـ٢٣٦

٢٤ـ **وأهل لوط ـعليه السلامـ** هم زوجه وابنتان له بكران، وكان له ابنتان

متزوجتان -كما ورد في التوراة- امتنع زوجاهما من الخروج مع لوط -عليه السلام- فهلكتا مع أهل القرية.

وأما امرأة لوط -عليه السلام- فقد أخبر الله عنها هنا أن الله لم يُنْجِها، فهلكت مع قوم لوط، وذكر في سورة هود ما ظاهره أنها لم تمتثل ما أمر الله لوطاً -عليه السلام- أن لا يلتفت هو ولا أحد من أهله الخارجين معه إلى المدن حين يصيبها العذاب؛ فالتفتت امرأته فأصابها العذاب، وذكر في سورة التحريم أن امرأة لوط -عليه السلام- كانت كافرة.

وقال المفسرون: كانت تُسِرُّ الكفر، وتظهر الإيمان، ولعل ذلك سبب التفاتها؛ لأنها كانت غير موقنة بنزول العذاب على قوم لوط، ويحتمل أنها لم تخرج مع لوط -عليه السلام- وأن قوله: ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾ في سورة هود، استثناء من ﴿أَهْلِكَ﴾ لا من ﴿أَحَدٌ﴾.

لعل امرأة لوط -عليه السلام- كانت من أهل سدوم تزوجها لوط -عليه السلام- هنالك بعد هجرته؛ فإنه أقام في سدوم سنين طويلة بعد أن هلكت أم بناته وقبل أن يُرْسَل، وليست هي أم بنتيه؛ فإن التوراة لم تذكر امرأة لوط -عليه السلام- إلا في آخر القصة. ٨-٢/٢٣٦-٢٣٧

**٢٥- وكان الذي أصاب قوم لوط حجراً وكبريتاً من أعلى القرى** -كما في التوراة-.

وكان الدخان يظهر من الأرض مثل دخان الأتون.

وقد ظن بعض الباحثين أن آبار الحمر التي ورد في التوراة أنها كانت في عمق

السديم، كانت قابلة للالتهاب بسبب زلازل أو سقوط صواعق عليها.

وقد ذكر في آية أخرى في القرآن أن الله جعل عالي تلك القرى سافلاً، وذلك هو الخسف، وهو من آثار الزلازل، ومن المستقرب[1] أن يكون البحر الميت هنالك قد طغى على هذه الآبار أو البراكين من آثار الزلزال. ٨ـ٢/٢٣٧ـ٢٣٨

٢٦ـ **وحاصل ما أمر به شعيب ـ عليه السلام ـ قومه،** بعد الأمر بالتوحيد، ينحصر في ثلاثة أصول: هي حفظ حقوق المعاملة المالية، وحفظ نظام الأمة ومصالحها، وحفظ حقوق حرية الاستهداء. ٨ـ٢/٢٤٣

٢٧ـ **والصبر:** حبس النفس في حال الترقب، سواء كان تَرَقُّبَ محبوبٍ، أم ترقب مكروه، وأشهر استعماله أن يطلق على حبس النفس في حال فقدان الأمر المحبوب. ٨ـ٢/٢٥٠

٢٨ـ و﴿يَطَّيَّرُوا﴾ **أصله يتطيروا،** وهو تَفَعُّل، مشتق من اسم الطير، كأنهم صاغوه على وزن التفعل؛ لما فيه من تكلُّف معرفة حظ المرء بدلالة حركات الطير، أو هو مطاوعة[2] سمي بها ما يحصل من الانفعال من إثْر طيران الطير.

وكان العرب إذا خرجوا في سفر لحاجة، نظروا إلى ما يلاقيهم أول سيرهم من طائر، فكانوا يزعمون أن في مروره علاماتِ يُمْنٍ وعلاماتِ شؤمٍ؛ فالذي في

---

١ ـ لعل معناه: القريب. (م)

٢ـ يقصد بقوله: مطاوعة: أن التاء في التطير هي تاء المطاوعة المعروفة عند النحاة، ومعنى المطاوعة: الموافقةُ، والتاءُ من أحرف الزيادة التي تعني عند زيادتها في الفعل حدوث الموافقة، مثل: عَلَّمته فتَعَلَّم، وكسَّرته فتكَسَّر. (م)

طيرانه علامةُ يُمْنٍ في اصطلاحهم يسمونه السانح، وهو الذي ينهض، فيطير من جهة اليمين للسائر، والذي علامته الشؤم هو البارح وهو الذي يمر على اليسار.

وإذا وجد طيراً جاثماً أثاره؛ لينظر أيّ جهة يطير، وتسمى تلك الإثارة زَجْراً؛ فمن الطير ميمون، ومنه مشؤوم، والعرب يدعون للمسافر بقولهم على الطائر الميمون، ثم غلب استعمال لفظ التطير في معنى التشاؤم خاصة، يقال الطيرة -أيضاً- كما في الحديث «**لا طيرة وإنما الطيرة على من تطير**».

أي: الشؤم يقع على من يتشاءم، جعل الله ذلك عقوبة له في الدنيا؛ لسوء ظنه بالله، وإنما غلب لفظ الطيرة على التشاؤم؛ لأن للأثر الحاصل من دلالة الطيران على الشؤم دلالةً أشد على النفس؛ لأن توقع الضر أدخل في النفوس من رجاء النفع.

والمراد به في الآية أنهم يتشاءمون بموسى ومن معه؛ فاستعمل التطير في التشاؤم بدون دلالة من الطير؛ لأن قوم فرعون لم يكونوا ممن يزجر الطير فيما علمنا من أحوال تاريخهم، ولكنهم زعموا أن دعوة موسى فيهم كانت سبب مصائب حلت بهم؛ فعبر عن ذلك بالتطير على طريقة التعبير العربي.

**والتشاؤم:** هو عد الشيء مشؤوماً، أي: يكون وجوده سبباً في وجود ما يُحْزِنُ ويضر.

فمعنى ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى﴾ يحسبون حلول ذلك بهم مُسَبَّباً عن وجود موسى ومن آمن به؛ وذلك أن آل فرعون كانوا متعلقين بضلال دينهم، وكانوا يحسبون أنهم إذا حافظوا على اتِّباعه كانوا في سعادة عيش؛ فحسبوا وجود من يخالف

دينهم سبباً في حلول المصائب والإضرار بهم؛ فتشاءموا بهم، ولم يعلموا أن سبب المصائب هو كفرهم وإعراضهم؛ لأن حلول المصائب بهم يلزم أن يكون مُسَبَّباً عن أسباب فيهم لا في غيرهم.

وهذا من العماية في الضلالة؛ فيبقون منصرفين عن معرفة الأسباب الحقيقية، ولذلك كان التطير من شعار أهل الشرك؛ لأنه مبني على نسبة المسببات لغير أسبابها، وذلك من مخترعات الذين وضعوا لهم ديانة الشرك وأوهامها.

في الحديث «**الطيرة شرك**»[1].

وتأويله: أنها من بقايا دين الشرك، ويقع بعد فعل التطير باء، وهي باء السببية تدخل على موجب التطير، وقد يقال -أيضاً-: تطير من كذا. ٩/٦٥-٦٦

٢٩ـ **والطوفان**: السيح الغالب من الماء الذي يغمر جهات كثيرة ويطغى على المنازل والمزارع.

قيل: هو مشتق من الطواف؛ لأن الماء يطوف بالمنازل، أي: تتكرر جريته حولها.

ولم يدخل الطوفان الأرض التي كان بها بنو إسرائيل وهي أرض جاسان.

**والجراد**: الحشرة الطائرة من فصيلة الصرصر والخنافس، له أجنحة ستة ذات ألوان صفر وحمر تنتشر عند طيرانه، يكون جنوداً كثيرة يسمى الجند منها رِجْلاً.

وهو مهلك للزرع والشجر، يأكل الورق والسنبل، وورق الشجر وقشره؛ فهو من أسباب القحط أصاب أرض قوم فرعون، ولم يصب أرض بني إسرائيل.

---

١ـ رواه أصحاب السنن.

**والقُمَّل** -بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة في القراءات المشهورة-: اسم نوع من القراد عظيم يسمى الحُمْنَان -بضم الحاء المهملة وميم ساكنة ونونين- واحدته حمنانة وهو يمتص دم الإنسان -وهو غير القَمْل بفتح القاف وسكون الميم الذي هو من الحشرات الدقيقة التي تكون في شعر الرأس وفي جلد الجسد يتكون من تعفن الجلد؛ لوسخه، ودُسُومته، ومن تعفن جلد الرأس كثيراً.

أصاب القِبْطَ جُنْدٌ كثيرٌ من الحُمنان عسر الاحتراز عنه؛ ولعله أصاب مواشيهم.

**والضفادع**: جمع ضفدع وهو حيوان يمشي على أرجل أربع؛ ويسحب بطنه على الأرض ويسبح في المياه، ويكون في الغدران ومناقع المياه، صوته مثل القراقر يسمى نقيقاً.

أصابهم جندٌ كثيرٌ منه يقع في طعامهم يرتمي إلى القدور، ويقع في فِيِّ العيون والأسقية وفي البيوت؛ فيفسد ما يقع فيه وتطؤه أرجل الناس، فَتَتَقَذَّر به البيوت، وقد سلمت منه بلاد جاسان -منزل بني إسرائيل-.

**والدم معروف**، قيل: أصابهم رُعَافٌ متفشٍّ فيهم، وقيل: صارت مياه القبط كالدم في اللون -كما في التوراة-.

ولعل ذلك من حدوثِ دودٍ أحمرَ في الماء؛ فشبه الماء بالدم، وسلمت مياه جاسان قرية بني إسرائيل. ٩/٦٩-٧٠

**٣٠- والنفس في الليل أكثر تجرداً للكمالات النفسانية، والأحوال الملكية، منها في النهار**؛ إذ قد اعتادت النفوس بحسب أصل التكوين الاستئناس بنور

الشمس والنشاط به؛ للشغل فلا يفارقها في النهار الاشتغال بالدنيا ولو بالتفكر وبمشاهدة الموجودات.

وذلك ينحط في الليل والظلمة، وتنعكس تفكُّرات النفس إلى داخلها، ولذلك لم تزل الشريعة تُحَرِّض على قيام الليل وعلى الابتهال فيه إلى الله -تعالى- قال: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ الآية.

وقال: ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.

وفي الحديث: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الأخير فيقول: هل من مستغفر فأغفر له، هل من داع فأستجيب له**».

ولم يزل الشغل في السهر من شعار الحكماء والمرتاضين؛ لأن السهر يُلَطِّف سلطان القوة الحيوانية كما يلطفها الصوم. ٨٦/٩

٣١- **ولذلك كان أئمة أهل السنة محقين** في الاستدلال بسؤال موسى رؤية الله على إمكانها بكيفية تليق بصفات الإلهية لا نعلم كنهها وهو معنى قولهم «بلا كيف».

وكان المعتزلة غير محقين في استدلالهم بذلك على استحالتها بكل صفة.

وقد يؤول الخلاف بين الفريقين إلى اللفظ، فإن الفريقين متفقان على استحالة إحاطة الإدراك بذات الله واستحالة التحيز، وأهل السنة قاطعون بأنها رؤية لا تنافي صفات الله -تعالى-.

وأما ما تبجح به الزمخشري في الكشاف فذلك من عدوان تعصبه على مخالفيه على عادته، وما كان ينبغي لعلماء طريقتنا التنازل لمهاجاته بمثل ما هاجاهم به، ولكنه قال؛ فَأَوْجَب.

واعلم أن سؤال موسى رؤية الله -تعالى- طلب على حقيقته كما يؤذن به سياق الآية وليس هو السؤال الذي سأله بنو إسرائيل المحكي في سورة البقرة بقوله ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾.

وما تمحل به في الكشاف من أنه هو ذلك السؤال تكلف لا داعي له. ٩/٩١-٩٢

٣٢- ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾.

فقيل المعنيُّ به أمية بن أبي الصلت الثقفي، وروي هذا عن عبد الله بن عمرو ابن العاصي، بأسانيد كثيرة عند الطبري، وعن زيد بن أسلم.

وقال القرطبي في التفسير: هو الأشهر، وهو قول الأكثر؛ ذلك أن أمية بن أبي الصلت الثقفي كان ممن أراد اتباع دين غير الشرك طالباً دين الحق، ونظر في التوراة والإنجيل؛ فلم ير النجاة في اليهودية ولا النصرانية، وتزهَّد وتوخَّى الحنيفية دين إبراهيم، وأخبر أن الله يبعث نبياً في العرب؛ فطمع أن يكونه، ورفض عبادة الأصنام، وحرم الخمر، وذكر في شعره أخباراً من قصص التوراة.

ويُروى أنه كانت له إلهامات ومكاشفات وكان يقول:

كل دين يوم القيامة عند الله ... إلا دين الحنيفية[1] زورٌ

وله شعرٌ كثيرٌ في أمور الإلهية؛ فلما بعث محمداً ﷺ أسف أن لم يكن هو

١ - هكذا في الأصل: ولعل الصواب (الحنيفة) حتى يستقيم وزن البيت. (م)

الرسول المبعوث في العرب، وقد اتفق أن خرج إلى البحرين قبل البعثة وأقام هنالك ثمان سنين، ثم رجع إلى مكة؛ فوجد البعثة، وتردَّد في الإسلام، ثم خرج إلى الشام، ورجع بعد وقعة بدر فلم يؤمن بالنبيﷺ حسداً، ورثى من قتل من المشركين يوم بدر، وخرج إلى الطائف بلاد قومه فمات كافراً.

وكان يذكر في شعره الثواب والعقاب واسم الله وأسماء الأنبياء، وقد قال فيه النبيﷺ: «**كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم**».

ورُوي عن أمية أنه قال لما مرض مرض موته أنا أعلم أن الحنيفية حق، ولكن الشك يداخلني في محمد.

فمعنى ﴿ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ أن الله ألهم أمية كراهية الشرك، وألقى في نفسه طلب الحق، ويسَّر له قراءة كتب الأنبياء، وحبب إليه الحنيفية؛ فلما انفتح له باب الهدى وأشرق نور الدعوة المحمدية كابر، وحسد، وأعرض عن الإسلام؛ فلا جرم أن كانت حاله أنه انسلخ عن جميع ما يُسِّر له، ولم ينتفع به عند إبَّان الانتفاع، فكان الشيطان هو الذي صرفه عن الهدى فكان من الغاوين؛ إذ مات على الكفر بمحمدﷺ.

وقال سعيد بن المسيب نزلت في أبي عامر بن صيفي الراهب، واسمه النعمان الخزرجي، وكان يلقب بالراهب في الجاهلية؛ لأنه قد تنصر في الجاهلية، ولبس المسوح[1] وزعم أنه على الحنيفية، فلما قدم النبيﷺ المدينة دخل على النبي فقال: يا محمد ما الذي جئت به قال: «**جئت بالحنيفية دين إبراهيم**».

---

١ ـ هكذا في الأصل: ولعل الصواب: المُسوح، وهي ثياب الرهبان في الأديرة. (م)

قال: فإني عليها فقال النبي: لستَ عليها؛ لأنك أدخلت فيها ما ليس منها؛ فكفر وخرج إلى مكة يحرض المشركين على قتال النبيﷺ ويخرج معهم، إلى أن قاتل في حنين بعد فتح مكة، فلما انهزمت هوازن يئس وخرج إلى الشام، فمات هنالك.

وذهب كثير من المفسرين إلى أنها نزلت في رجل من الكنعانيين وكان في زمن موسى -عليه السلام- يقال له: بلعام بن باعور، وذكروا قصته، فخلطوها، وغيروها، واختلفوا فيها.

والتحقيق أن بلعام هذا كان من صالحي أهل مدين وعَرَّافيهم في زمن مرور بني إسرائيل على أرض مؤاب، ولكنه لم يتغير عن حال الصلاح، وذلك مذكور في سفر العدد من التوراة في الإصحاحات ٢٢-٢٣-٢٤ فلا ينبغي الالتفات إلى هذا القول، لاضطرابه واختلاطه. ٩/١٧٤-١٧٥

٣٣- **والكلب:** حيوان من ذوات الأربع، ذو أنياب وأظفار، كثير النبح في الليل، قليل النوم فيه، كثير النوم في النهار، يألف من يعاشره، يحرس مكانه من الطارقين الذين لا يألفهم، ويحرس الأنعام التي يعاشرها، ويعدو على الذئاب، ويقبل التعليم؛ لأنه ذكي، ويلهث إذا أتعب، أو اشتد عليه الحر، ويلهث بدون ذلك؛ لأن في خلقته ضيقاً في مجاري النفس يرتاح له باللهث. ٩/١٧٨

٣٤- ﴿ خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾.

وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق؛ لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفواً عن اعتداء، فتدخل في ﴿ خُذْ الْعَفْوَ ﴾ أو إغضاءً عما لا يلائم؛

فتدخل في ﴿وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾ أو فعلَ خيرٍ واتساماً بفضيلة؛ فتدخل في ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ كما تقدم من الأمر بالأمر بالشيء أمر بذلك الشيء، وهذا معنى قول جعفر بن محمد: في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق.

وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها، وهي صالحة لأن يبين بعضها بعضاً؛ فإنَّ الأمر بأخذ العفو يتقيد بوجوب الأمر بالعرف، وذلك في كل ما لا يقبل العفو والمسامحة من الحقوق، وكذلك الأمر بالعرف يتقيد بأخذ العفو، وذلك بأن يدعو الناس إلى الخير بلين ورفق. ٢٢٩/٩

# سورة الأنفال

١ ـ **عرفت بهذا الاسم** من عهد أصحاب رسول الله ﷺ: روى الواحدي في أسباب النزول عن سعد بن أبي وقاص قال: «لما كان يوم بدر قتل أخي عمير، وقتلتُ سعيد بن العاصي، فأخذت سيفه، فأتيت به النبي ﷺ فقال: اذهب القَبَض ـبفتحتين الموضع الذي تجمع فيه الغنائمـ فرجعت في ما لا يعلمه إلا الله؛ قُتِل أخي، وأُخذ سلبي؛ فما جاوزتُ قريباً حتى نزلت سورة الأنفال».

وأخرج البخاري، عن سعيد بن جبير، قال: «قلت لابن عباس سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر».

فباسم الأنفال عرفت بين المسلمين، وبه كتبت تسميتها في المصحف حين كتبت أسماء السور في زمن الحجاج، ولم يثبت في تسميتها حديث، وتسميتها سورة الأنفال من أنها افتتحت بآية فيها اسم الأنفال، ومن أجل أنها ذكر فيها حكم الأنفال ـكما سيأتيـ.

وتسمى ـأيضاًـ سورة بدر؛ ففي الإتقان أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: «قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر».

وقد اتفق رجال الأثر كلهم على أنها نزلت في غزوة بدر، قال ابن إسحاق: أنزلت في أمر بدر سورة الأنفال بأسرها، وكانت غزوة بدر في رمضان من العام الثاني للهجرة بعد عام ونصف من يوم الهجرة، وذلك بعد تحويل القبلة بشهرين، وكان ابتداء نزولها قبل الانصراف من بدر؛ فإن الآية الأولى منها نزلت

والمسلمون في بدر قبل قسمة مغانمها، كما دل عليه حديث سعد بن أبي وقاص والظاهر أنها استمر نزولها إلى ما بعد الانصراف من بدر.

وفي كلام أهل أسباب النزول ما يقتضي أن آية ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ إلى ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ نزلت بعد نزول السورة بمدة طويلة، كما روي عن ابن عباس، وسيأتي تحقيقه هنالك.

وقال جماعة من المفسرين: إن آيات ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ إلى ﴿لا يَفْقَهُونَ﴾ نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل ابتداء القتال؛ فتكون تلك الآية نزلت قبل نزول أول السورة.

**نزلت هذه السورة بعد سورة البقرة،** ثم قيل: هي الثانية نزولاً بالمدينة، وقيل: نزلت البقرة ثم آل عمران ثم الأنفال، والأصح أنها ثانيةُ السور بالمدينة نزولاً بعد سورة البقرة. ٩/٢٤٥ـ٢٤٦

٢ـ **ونزولها بسبب اختلاف أهل بدر في غنائم يوم بدر وأنفاله،** وقيل: بسبب ما سأله بعضُ الغزاةِ النبيَّ ﷺ أن يعطيهم من الأنفال، كما سيأتي عند تفسير أول آية منها. ٩/٢٤٦

٣ـ **أغراضُ هذه السورة:** ابتدأت ببيانِ أحكامِ الأنفال، وهي الغنائمُ وقسمتُها، ومصارفُها، والأمرِ بتقوى الله في ذلك وغيره، والأمرِ بطاعة الله ورسوله، في أمر الغنائم وغيرها.

وأمرِ المسلمين بإصلاح ذات بينهم، وأن ذلك من مقومات معنى الإيمان الكامل.

وذكرِ الخروج إلى غزوة بدر، وبخوفهم من قوة عددهم، وما لقوا فيها من

نصرٍ، وتأييدٍ من الله ولطفه بهم.

وامتنانِ الله عليهم بأن جعلهم أقوياء.

وَوَعَدَهم بالنصر والهداية[١] إن اتقوا بالثبات للعدو، والصبر.

والأمرُ بالاستعداد لحرب الأعداء، والأمر باجتماع الكلمة والنهي عن التنازع، والأمر بأن يكون قصدُ النصرةِ للدين نُصْبَ أعينهم.

ووصفُ السببِ الذي أخرج المسلمين إلى بدر، وذِكْرُ مواقع الجيشين، وصفاتُ ما جرى من القتال.

وتذكيرُ النبيﷺ بنعمة الله عليه؛ إذ أنجاه من مكر المشركين به بمكة، وخَلَّصَه من عنادهم، وأن مقامَه بمكة كان أماناً لأهلها، فلما فارقهم فَقَدْ حقَّ عليهم عذابُ الدنيا بما اقترفوا من الصد عن المسجد الحرام.

ودعوةُ المشركين للانتهاء عن مناوأة الإسلام، وإيذانُهم بالقتال.

والتحذيرُ من المنافقين.

وضربُ المثلِ بالأمم الماضية التي عاندت رسل الله، ولم يشكروا نعمة الله.

وأحكامُ العهدِ بين المسلمين والكفار، وما يترتب على نقضهم العهد، ومتى يحسن السلم.

وأحكامُ الأسرى، وأحكامُ المسلمين الذين تخلفوا في مكة بعد الهجرة، وولايتُهم، وما يترتب على تلك الولاية. ٩/٢٤٧

٤ـ **والأنفال جمع نَفَل** ـبالتحريكـ والنفل مشتق من النافلة، وهي الزيادة في

---

١ ـ في الأصل: الهواية، ولعل الصواب ما أُثبت. (م)

العطاء، وقد أطلق العرب في القديم الأنفال على الغنائم في الحرب كأنهم اعتبروها زيادة على المقصود من الحرب، لأن المقصود الأهم من الحرب هو إبادة الأعداء، ولذلك ربما كان صناديدهم يأبون أخذ الغنائم كما قال عنترة:

**يخبرك من شهد الوقيعة أنني  أغشى الوغى وأَعَفُّ عند المغنم**

وأقوالهم في هذا كثيرة؛ فإطلاق الأنفال في كلامهم على الغنائم مشهور قال عنترة:

**إنا إذا احمر الوغى نروي القنا  ونعف عند مقاسم الأنفال**

وقد قال في القصيدة الأخرى أعف عند المغنم؛ فعلمنا أنه يريد من الأنفال المغانم وقال أوس بن حجر الأسدي وهو جاهلي:

**نكصتم على أعقابكم ثم جئتموا  تُرَجُّون أنفالَ الخميس العرمرم**

ويقولون: نفلني كذا يريدون أغنمني، حتى صار النفل يطلق على ما يعطاه المقاتل من المغنم زيادة على قِسْطِه من المغنم؛ لمزية له في البلاء والغِناء، أو على ما يعثر عليه من غير قتيله، وهذا صنف من المغانم. ٢٤٩/٩

٥- **فالأنفال في هذه الآية قال الجمهور:** المراد بها ما كان زائداً على المغنم؛ فيكون النظر فيه لأمير الجيش يصرفه لمصلحة المسلمين، أو يعطيه لبعض أهل الجيش؛ لإظهار مزية البطل، أو لخصلة عظيمة يأتي بها، أو للتحريض على النكاية في العدو؛ فقد قال رسول الله ﷺ يوم حنين: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**».

وقد جعلها القرآن لله وللرسول، أي لما يأمر به الله رسوله أو لما يراه الرسول ﷺ.

قال مالك في الموطأ: «ولم يبلغنا أن رسول الله قال من قتل قتيلاً فله سلبه إلا يوم حنين، ولا بلغنا عن الخلفاء من بعده».

يعني مع تكرر ما يقتضيه؛ فأراد ذلك أن تلك قضية خاصة بيوم حنين.

فالآية محكمةٌ غير منسوخة بقوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾.

فيكون لكل آية منهما حكمها؛ إذ لا تداخل بينهما.

قال القرطبي: «وهو ما حكاه المازري عن كثير من أصحابنا». ٩/٢٥٠

٦ـ وعن ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعطاء: أن المراد بالأنفال في هذه الآية الغنائم مطلقاً.

وجعلوا حكمها هنا أنها جعلت لله وللرسول أي أن يقسمها الرسول ﷺ بحسب ما يراه بلا تحديد ولا اطّراد، وأن ذلك كان في أول قسمة وقعت ببدر كما في حديث ابن عباس، ثم نسخ ذلك بآية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآيةَ؛ إذ كان قد عيَّن أربعة الأخماس للجيش، فجعل لله وللرسول الخمس، وجعل أربعة الأخماس حقاً للمجاهدين، يعني وبقي حكم الفيء المذكور في سورة الحشر غير منسوخ ولا ناسخ؛ فلذلك قال مالك والجمهور: «لا نفل إلا من الخمس على الاجتهاد من الإمام».

وقال مالك: «إعطاء السلب من التنفيل».

وقال مجاهد: «الأنفال هي خمس المغانم وهو المجعول لله، والرسول، ولذي القربى». ٩/٢٥١

٧ـ **والغشي والغشيان**: كون الشيء غاشياً أي غاماً ومُغَطِّياً؛ فالنوم يغطي العقل، والنعاس النوم غير الثقيل، وهو مِثْلَ السِّنة. ٢٧٨/٩

٨ـ **وإنما كان النعاس أمناً لهم** لأنهم لما ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدة النوم؛ فتلك نعمة، ولما استيقظوا وجدوا نشاطاً، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة، ويزيل شعور الخوف الذي هو فتور الأعصاب. ٢٧٨/٩

٩ـ **والبنان**: اسم جمع بنانة وهي الإصبع، وقيل: طرف الإصبع، وإضافة كل إليه؛ لاستغراق أصحابها.

وإنما خُصَّتِ الأعناق والبنان؛ لأن ضرب الأعناق إتلافٌ لأجساد المشركين، وضربُ البنان يُبْطِلُ صلاحيةَ المضروب للقتال؛ لأن تناول السلاح إنما يكون بالأصابع، ومن ثَمَّ كثُر في كلامهم الاستغناء بذكر ما تتناوله اليد، أو ما تتناوله الأصابع عن ذكر السيف، قال النابغة:

**وأن تلادي أن نظرت وشِكَّتِي ... ومُهْري وما ضَمَّتْ إليَّ الأناملُ**

يعني سيفه.

وقال أبو الغول الطهوي:

**فَدَتْ نفسي وما ملكت يميني ... فوارسُ صُدِّقت فيهم ظنوني**

يريد السيف، ومثل ذلك كثير في كلامهم؛ فضرب البنان يحصل به تعطيل عمل اليد؛ فإذا ضربت اليد كلها فذلك أجدر. ٢٨٣/٩

١٠ـ **وضرب الملائكة** يجوز أن يكون مباشرة بتكوين قطع الأعناق والأصابع بواسطة فعل الملائكة على كيفية خارقة للعادة، وقد ورد في بعض الآثار عن

بعض الصحابة ما يشهد لهذا المعنى؛ فإسناد الضرب حقيقة.

**ويجوز أن يكون** بتسديد ضربات المسلمين، وتوجيه المشركين إلى جهاتها، فإسناد الضرب إلى الملائكة مجاز عقلي؛ لأنهم سببه.

وقد قيل: الأمر بالضرب للمسلمين، وهو بعيد؛ لأن السورة نزلت بعد انكشاف الملحمة. ٢٨٣/٩

١١ـ **والرمي حقيقته:** إلقاء شيء أمسكته اليد، ويطلق الرمي على الإصابة بسوء من فعل أو قول كما في قول النابغة:

**رمى الله في تلك الأكفّ الكوانع**

أي أصابها بما يشلها، وقول جميل:

**رمى الله في عينيْ بثينةَ بالقذى ... وفي الغُرِّ من أنيابها بالقوازح**

٢٩٤/٩ـ٢٩٥

١٢ـ ﴿وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللهَ يَحُوْلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُوْنَ(٢٤)﴾.

والمقصود من هذا تحذير المؤمنين من كل خاطر يخطر في النفوس: من التراخي في الاستجابة إلى دعوة الرسول ﷺ والتنصل منها، أو التستر في مخالفته، وهو معنى قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾.

وبهذا يظهر وقع قوله: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ عقِبَه؛ فكان ما قبله تحذيراً، وكان هو تهديداً.

وفي الكشاف، وابن عطية قيل: إن المرادَ الحثُّ على المبادرة بالامتثال، وعدمُ إرجاء ذلك إلى وقت آخر؛ خشيةَ أن تعترض المرءَ موانعُ من تنفيذ عزمه على الطاعة أي فيكون الكلام على حذف مضاف تقديره: أن أجل الله يحول بين المرء

وقلبه، أي بين عمله وعزمه قال ـتعالىـ: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ الآية. ٣١٥/٩

١٣ـ **والمُكاء على صيغة مصادر الأصوات**، كالرُّغاء، والثغاء، والبكاء، والنواح.

يقال مكا يمكو إذا صفَّر بِفِيْهِ، ومنه سمي نوع من الطير المَكَّاء بفتح الميم وتشديد الكاف، وجمعُه مكاكئ بهمزة في آخره بعد الياء وهو طائر أبيض يكون بالحجاز.

وعن الأصمعي قلت لمنتجع بن نبهان: «ما تمكو؟ فشبك بين أصابعه، ثم وضعها على فمه ونفخ».

**والتَّصْدية**: التصفيق مشتقاً من الصدى، وهو الصوت الذي يرده الهواء محاكياً لصوت صالح في البراح من جهة مقابلة.

ولا تعرف للمشركين صلاةٌ؛ فتسمية مكائهم وتصديتهم صلاة مشاكلة تقديرية؛ لأنهم لما صدوا المسلمين عن الصلاة وقراءة القرآن في المسجد الحرام عند البيت ـ كان من جملة طرائق صدهم إياهم تشغيبهم عليهم، وسخريتهم بهم يحاكون قراءة المسلمين، وصلاتهم بالمكاء والتصدية. ٣٣٨/٩ـ٣٣٩

١٤ـ **وتعبيرات السلف في التفرقة بين الغنيمة والنفل غير مضبوطة**، وهذا ملاك الفصل في هذا المقام لتمييز أصناف الأموال المأخوذة في القتال؛ فأما صور قسمتها فسيأتي بعضها في هذه الآية.

فاصطلحوا على أن الغنيمة، ويقال لها المغنم: ما يأخذه الغُزاة من أمتعة

المقاتلين غصباً، بقتل أو بأسر، أو يقتحمون ديارهم غازين، أو ما يتركه الأعداء في ديارهم إذا فروا عند هجوم الجيش عليهم بعد ابتداء القتال.

فأما ما يظفر به الجيش في غير حالة الغزو من مال العدو، وما يتركه العدو من المتاع إذا أخلوا بلادهم قبل هجوم جيش المسلمين ـ فذلك الفيء، وسيجيء في سورة الحشر.

وقد اختلف فقهاء الأمصار في مقتضى هذه الآية مع آية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ الآيةَ، فقال مالك: ليس أموال العدو المقاتل حق[1] لجيش المسلمين إلا الغنيمة والفيء.

وأما النفل فليس حقاً مستقلاً بالحكم، ولكنه ما يعطيه الإمام من الخمس لبعض المقاتلين زائداً على سهمه من الغنيمة على ما يرى من الاجتهاد، ولا تعيين لمقدار النفل في الخمس، ولا حدَّ له، ولا يكون فيما زاد على الخمس.

هذا قول مالك، ورواية عن الشافعي، وهو الجاري على ما عمل به الخلفاء الثلاثة بعد رسول الله ﷺ.

وقال أبو حنيفة، والشافعي في أشهر الروايتين عنه، وسعيد بن المسيب: النفل من الخمس، وهو خمس الخمس.

وعن الأوزاعي، ومكحول، وجمهور الفقهاء: النفل ما يعطى من الغنيمة يخرج من ثلث الخمس. ١٠/٦ـ٧

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: ليس في أموال العدو المقاتل حق، أو ليس أموال العدو المقاتل حقاً. (م)

١٥ـ **والعُدوة** بتثليث العين ضفة الوادي وشاطئه، والضم والكسر في العين أفصح، وعليهما القراءات المشهورة، فقرأه الجمهور بضم العين وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب بكسر العين.

والمراد بها شاطئ وادي بدرٍ، وبدرٌ اسم ماء، و﴿ الدُّنْيَا ﴾ هي القريبة أي العدوة التي من جهة المدينة؛ فهي أقرب لجيش المسلمين من العدوة التي من جهة مكة.

والعدوة القصوى هي التي مما يلي مكة، وهي كثيب، وهي قصوى بالنسبة لموقع بلد المسلمين.

والوصف بالدنيا والقصوى يَشْعُر المخاطبون بفائدته، وهي أن المسلمين كانوا حريصين أن يسبقوا المشركين إلى العدوة القصوى؛ لأنها أصلب أرضاً فليس للوصف بالدنوِّ والقصوِّ أثرٌ في تفضيل إحدى العدوتين على الأخرى، ولكنه صادف أن كانت القصوى أسعدَ بنزول الجيش؛ فلما سبق جيش المشركين إليها اغتم المسلمون، فلما نزل المسلمون بالعدوة الدنيا أرسل الله المطر، وكان الوادي دَهْسَا فَلَبَّد المطرُ الأرضَ، ولم يعقهم عن المسير، وأصاب الأرض التي بها قريش، فعطلهم عن الرحيل، فلم يبلغوا بدراً إلا بعد أن وصل المسلمون، وتخيروا أحسن موقع، وسبقوا إلى الماء، فاتخذوا حوضاً يكفيهم، وغوروا الماء، فلما وصل المشركون إلى الماء وجدوه قد احتازه المسلمون، فكان المسلمون يشربون، ولا يجد المشركون ماءً. ١٠/١٦

١٦ـ **والفشل**: الجبن والوهن، **والتنازع**: الاختلاف، **والمراد بالأمر**: الخطة التي يجب اتباعها في قتال العدو من ثبات أو انجلاء عن القتال. ١٠/٢٤

١٧ـ **والذوق**: مستعمل في مطلق الإحساس، بعلاقة الإطلاق. ١٠/٤١

١٨ـ **والثقف:** الظفر بالمطلوب، أي: فإن وجدتهم وظفرت بهم في حرب، أي انتصرت عليهم.

**والتشريد:** التطريد والتفريق، أي: فبعّد بهم من خلفهم، وقد يجعل التشريد كناية عن التخويف والتنفير. ١٠/٥٠